التَّنَاسُبُ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ القِصَارِ
سُورُ (العَلَقِ وَالْقَلَمِ وَالمُزَّمِّلِ) أُنْمُوذَجاً

السيد جعفر السيد باقر الحسيني
جامعة الكوفة - العراق

الدكتور السيد محمد الموسوي المقدم
جامعة طهران - ايران

فحوى البحث

تناول السيدان الباحثان موضوع (علم التناسب)، بوصفه من العلوم التي تعدّ منهجاً اسلوبيا يستجلي العلاقات اللغوية والأسلوبية والعقلية داخل النص الكريم، انتهاءاً بالوقوف على انسجام وحداته وتلاحم بناه.

وقد اتخذ البحث من ثلاث سور شريفة مما نزل ابتداءاً من القرآن الكريم انموذجاً لبسط البحث وهي: سورة العلق وسورة القلم وسورة المزمل لاظهار صور التذوق الاسلوبي والبلاغي للقرآن وتفعيل تدبره والاعتناء به واستخراج معانيه ثم البحث في لوازمها والاحكام والمعاني السياقية التي لا تُستقى من الجملة بمفردها.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

علم التناسب من العلوم التي تعدّ منهجاً أسلوبياً يستجلي العلاقات اللغوية والاسلوبية والعقلية داخل النصّ، انتهاءاً الى الوقوف على انسجام وحداته وتلاحم بناه،[1] ولما كان انسجام النص القرآني، وتماسك أجزائه وبناه ليس ظاهرة عارضة، أو أمراً مرتجلاً، بل هو وحدة كاملة متماسكة كالجملة الواردة، وانه يفسر بعضه بعضاً لتعلق بعضه برقاب بعض تضافرت عليه عوامل شتى، كنمو النص من المجمل الى المفصل، والمراد سياقه، وتكامل السياقات: سياق الآية وسياق السور، وسياق القرآن، فهذا كلّه بما يراعى في الفهم والسير والتأويل، حتى لا يهدر مغزى النص أو يحمّل دلالة متعذرة، ولقد تفاوت أهل العلم في ادراك المناسبات لتفاوت قدراتهم في فهم أسرار البيان القرآني، والتبحر في إدراك الروابط الموضوعية والشكلية والذهنية بين النصوص التي تبدو في ظاهرها متنافرة أو مبعثرة، الا أنها جارية في تأليف محكم وبناء متراص ونسيج محكم، جار على أحسن نظام وأتم منوال، فتلوح من مقاصد القرآن، وتتجلى بدائعه، وتتضح باطنها بخلاف ذلك بعد بعد النظر والتحقيق، وأي ابداع في القراءة والتأويل انجح من الرقي بالنص من حيز الانحزام الى مرتبة الانسجام، وإذا كان هذا الحكم يخص النصوص البشرية عامة فما بالك بالنص القرآني الذي لا يجد فيه المسؤول مدلفاً الى القول بالانحزام، والتبعثر، والتشتت ظاهراً وباطناً، ومرجع هذه المناسبة في الآيات والسور الى معنى رابط بينهما عام أو خاص، أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول[2] فاختلاف الموضوعات وتباين المقامات في النص القرآني لا يخل بالانسجام الداخلي، مادامت المناسبات المتعددة

(١) النص القرآني من تهافت القراءة الى أفق التدبر، د. قطب الريسوني، ص٢٢٤.

(٢) الاتقان، السيوطي، ج٢، ص١٣٩.

تدفع هذا الاختلال وتحفظ التماسك الموضوعي بروابط شتى، وهذا ما تهدّى اليه الباحثان (ج. بروان، وج. بول) في النصوص الممتازة حين قالا: إن انسجام النصوص أمر يجب على القارئ تخفيفه والتنقيب عنه، وذلك من خلال اكتشاف الروابط بين أجزاء الكلام المثمر مع النصّ تأويلاً وتفسيراً.

وقد نوّه نولدكه[٣] بذاك إذ رأى أن القرآن وحدة مترابطة ترجع كلّها الى معرفة التوحيد، ثم طبق مبدأ هذا العلم على جزء من النص القرآني: (السور المكية) وان كانت نصوصاً صغيرة إلا أنها جزء من نص متماسك هو النص القرآني ينبغي ربطها به[٤].

وعد بعض الباحثين علم المناسبة من المواضيع الشيقة الجميلة التي تتعلق بكتاب الله عزّ وجلّ، وهو من صور التذوق الأُسلوبي والبلاغي للقرآن، وتفعيل التدبر والاعتناء بالقرآن واستخراج المعاني ثم البحث في لوازمها واستخراج العبر والأحكام والمعاني السياقية التي لا تستقي من الجملة بمفردها بعيداً عن السياق[٥].

(٣) تاريخ القرآن، ص٧٧.

(٤) النص القرآني من تهافت القراءة الى أفق التدبر، ص٢٢٤.

التناسب لغة واصطلاحاً

التناسب في اللغة: التطابق، والتآلف، والتلاؤم، والتجانس، والتوازن، والتوافق.

أصل المادة: (اتّصال شيءٍ بشيءٍ) ومنه النسب سُمّي لاتصاله وللاتصال به[٦].

والنسب واحد الأنساب، وهو القرابة، وفلان يناسب فلاناً فهو نسيبه، أي قريبه، وبينهما مناسبة أي مشاكلة، ونسبت الرجل، أي ذكرت نسبه، وبابه ضرب، وانتسب إلى أبيه، أي اعتزى[٧].

والنسب هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه...

والمناسبة: المقاربة والمشاكلة، وفلان

(٥) التناسب القرآني، أمير طلال النعيمي، ص٢.

(٦) معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص٤٢٣.

(٧) مختار الصحاح، ص٤٧٩؛ المصباح المنير، مادة «نسب».

يناسب فلاناً، أي يقرب منه و يشاكله[٨].

ومنه المناسبة في العلة في باب القياس وهي الوصف المقارب للحكم؛ لأنه اذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم[٩].

التناسب اصطلاحاً:

عرّف البقاعي علم المناسبات القرآني بأنّه: «علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن بعضها إثر بعض، وهو سرّ البلاغة لأدائه الى تحقيق مطابقة المعاني، لما اقتضاه من الحال» وأضاف قائلاً: وتتوقف الإجاءة على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو[١٠].

وعند القاضي أبي بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ)، هو: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني»[١١].

وعرفه الفراهي الذي أطلق عليه اسم (النظام) بالقول: «ومرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة... وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول الى الآخر»[١٢].

وعرف المناسبة الدكتور مصطفى مسلم بأنّها: «الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه وفي كتاب الله تعني ارتباط السور بما قبلها وبعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها»[١٣].

وقد أطلق على التناسب عدة مصطلحات كالتناسق، والانسجام،

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ج١، ص٦.

(١١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج١، ص١٢.

(١٢) دلائل النظام، الفراهي، عبد الحميد، (الهند: ١٣٨٨هـ)، ص٧٥.

(١٣) مباحث في التفسير الموضوعي، (دمشق: ٢٠٠٥م)، ص٥٨.

أو علم المناسبة، أو الوحدة البنائية والوحدة العضوية، والنظام، والوحدة الموضوعية وغير ذلك[١٤].

سورة العلق: سميت بـ(العلق) لدلالته على أن الله تعالى أعزّ الإنسان بإنزال القرآن عليه كما أعزّ العلق بإنزال روح الإنسان وصورته عليه[١٥].

وهي اول سورة نزلت من القرآن، وسياق آياتها لأيأبى نزولها دفعة واحدة، وهي مكية قطعاً[١٦]، كما أن سياقها يدل على صلاة النبيﷺ قبل نزول القرآن، وفيه دلالة على نبوته قبل رسالته بالقرآن[١٧].

الفعل (اقرأ) جاء على صيغة الأمر امتثالاً لأمر الله تعالى بالقراءة المُحَقِّقَة للمعرفة، تلك المُوصِلة لله -تبارك وتعالى -وفي هذا الافتتاح براعة استهلال القرآن الكريم ثم جاءت غالبية أفعال هذا التصوير ماضية؛ للدِّلالة على تحقق وقوع أحداثها، وجاءت بعض أفعال هذا التّصوير مضارعة دلالته على التجدّد والاستمرار، هذا فضلاً عن أنَّ المراوحة بين الأفعال الماضية والمضارعة يحقق التنويع، وربطت أسماء الفاعل الأحداث بأصحابها، ودلت الصيغة في (الأكرم) المعرفة بـ(أل) على اختصاصه تعالى بهذه الرتبة العليا من الكرم الفيّاض[١٨].

ومحور السورة جاءت لتبين عظيم قدرة الله، وذلك ببيان خلق الإنسان من علق وقدرة الله على تعليمه بعد خلقه، وكلها دلائل جلية على عظيم قدرة الله وكمال فضله[١٩].

وتضع جميع تراتيب السور المروية

(١٤) ينظر: دلالات الترتيب والتركيب في سورة البقرة، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة، زهراء خالد سعد الله العبيدي، ص١٤ و١٨، (الموصل: ٢٠٠٧م).
(١٥) تفسير المهائمي المسمى (تبصير الرحمن و تيسير المنان)، ج٣، ص٥٥٢.
(١٦) تاريخ الطبري، ج٢، ص٣٠٥ و٣٠٦؛ سنن البيهقي، ج٧، ص٥١؛ الصحيح من اسباب النزول وفضائل السور، ص٤٠٥.
(١٧) الميزان في تفسير القرآن، ج٢٠، ص٣٢٢.
(١٨) ينظر: التصوير القرآني في جزء عم، أناهيد عبد الحميد جمال حريري، ج٢، ص٧٧٦؛ التحرير والتنوير، ج٣، ص٤٣٥.
(١٩) التفسير الموضوعي، ج٩، ص٢٤٩.

هذه السورة أولى السور ترتيباً، والمتبادر أن ذلك بسبب كون الآيات الخمس الأولى منها هي أولى آيات القرآن نزولاً على ما عليه الجمهور؛ لأنّ مضمون باقي الآيات وأسلوبها يدلان على أنّه نزل بعد مدّة ما من نزول آياتها الخمس الأولى، على أن هذه المدّة ليست طويلة على تُلْهِم آيات السورة[٢٠].

وفي الآيات الخمس الأولى أمر النبيﷺ بالقراءة فناسب أنّ تستفتح بالقراءة، وباسم الله؛ الإقراء للقرآن، وباسم الله، لأنه هو الذي يدعو محمداًﷺ باسمه الى الدين، وذكر الرب لأن القراءة للتربية والتعليم. ونوّه بما ألهم الله الإنسان من العلم والمعرفة التي أغدقها الله تعالى على الانسان بصفتها المعيار المميّز للبشر عن سواه... لكن الملاحظ أن النصّ القرآني الكريم، علّق على هذا العطاء المعرفي للإنسان قائلاً:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾

(٢٠) التفسير الحديث، دروزة، ج٢، ص٣١٥؛ الميزان في تفسير القرآن، ج٢٠، ص٣٢٥.

[سورة العلق: ٦ -٧] وهذا الطغيان؛ بسبب من استغناء الإنسان، سواء أكان الاستغناء ماديّاً أم معنوياً، وتعليل طغيان الإنسان برؤيته لنفسه الاستغناء، للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد، والجملة مؤكدة بعدّة مؤكّدات، لقصد زيادة تحقيق الخبر؛ لغرابته، حتى كأنّه مما يتوقع أن يشك السامع فيه[٢١].

وقد حُذِف متعلق الفعل: (استغنى)، والمراد: استغنى بماله أو عشيرته أو جاهه...، أو بجميعها. وفي ذلك ايجاز وبراعة في القول[٢٢].

ثم جاء تذكير الانسان الطاغي بمصيره، تنبيهاً وتهديداً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ على طريقة الالتفات من أسلوب الغيبة الى الخطاب.

وفي تقديم خبر (إنّ) على اسمها: (الرجعى) قصر الرجوع إليه وحده، واهتمام بذلك الرجوع.

ثم جاء الاستفهام التعجبي

(٢١) التحرير والتنوير، ج٣، ص٤٤٤.

(٢٢) البلاغة القيّمة، د. عبد القادر حسين، ص١٢٥.

الإنكاري التقبيحي في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ لحال الناهي عبداً عن عبادة الله والصلاة له، وهذا تقرير للنبيﷺ واعلام له بما يفعله بمن ينهاه عن الصلاة [٢٣].

ثم توال استفهامان آخران؛ لاستحضار المستفهم عنه في الذهن فأضاف الى الاستفهام الأول من التشنيع والتعجيب وهي تُضمُّ شناعة الى شناعة، وتضاف بشاعة الى بشاعة؟!. أرأيت إن أضاف الى الفعلة المستنكرة؛ ثم ينهاه، مع أنّه على الهدى، آمر بالتقوى، فكنى بالعبد عن رسول اللهﷺ وتنكير العبد لتفخيمهﷺ كأنه قيل: ينهى أكمل الخلق في العبودية عن عبادة ربّه. ثم أضاف الى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكراً؟!. (أرأيت إن كذّب وتولى)؟!. فهنا يجيء التهديد الملفوف، وقد كنى في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ عن الوعيد والعقاب وهو عيد موجز دالّ مغن [٢٤].

إنما طرحه النصّ هنا ليؤدي مهمة فنية مزدوجة:

إحداها: إبراز هذه السمة السلبية للإنسان ولفت النظر إليها لتعديل سلوكنا.

والأخرى: مهمة عضوية هي الربط الفني بين هذا القسم الذي ختمه بظاهرة طغيان البشر؛ وبين القسم الثاني من السورة، إذ يتمخض قصصياً للحديث عن نموذج من نماذج الطغيان الذي يطبع بطل القصة،[٢٥] الذي اغتر بماله وجاهد تصدٍ للنبيﷺ وتثبيت للنبيﷺ في دعوته و موفقه وعدم المبالات به.

وبعد أن أمر الله نبيهﷺ أن يقرأ باسم ربّه، وأن يدعوه باسمائه الحسنى، أقسم عزّ وجلّ بالقلم الذي يكتب به لمنافع الخلق، إذ هو أحد لساني الإنسان، يؤدي عنه ما في جنانه، ويبلغ البعيد عنه ما يبلغ القريب بلسانه، وبه تحفظ أحكام الدين، وبه تستقم أمور

(٢٣) ينظر: مجمع البيان، ج١٠، ص٧٨٢.
(٢٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج٣٠، ص٤٤٩.
(٢٥) ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني، ج٥، ص٣٧٠.

العالمين[٢٦].

ثم عبّر عن صورة من طغيان الانسان الذي حمله على الوقوف في وجه من يعبد الرحمن، فنهى عن طاعة الله، فاستحق وعيد الله له بالعقاب، وفي ذلك دلالة على جهله بحقيقة قدرة الله الخالق جلّ وعلا.

ويبرز ارتباط آيات هذا المشهد بعضها ببعض، واختتام فواصله بمدّ طبيعي تمثله: (ألف)، وارتباطها بوقفات غير منتهية، وتوافقها في تركيبها المقطعي على مستوى مقطعين، وفي قالبها النّبري على مستوى ستة مقاطع، وافتتاح المشهد الرابع بأداة الردع والزجر: (كلا) واستئناف الجملة التي تليها. وهو مشهد العقاب المنتظر لذلك الطاغي تمثله الآيات [١٥ -١٩] اذ يبرز غضب الله على هذا الطاغي المتمادي في غيّه، ويتوعّده الله تعالى بجذبه من ناصيته، وبتعذيب زبانية العذاب الغلاظ إياه، إذ دعا أهل ناديه الطوغيت[٢٧].

وهكذا نجد في سورة العلق تناسقاً عجيباً بين أجزائها، وتسلسلاً رائعاً في ترتيب الحقائق التي تضمنتها، ففي المقطع الاول: تشير السورة الى أن الله هو الخالق الذي خلق وهو الذي علم، فمنه البدء والنشأة، ومنه التعليم والمعرفة.

والمقطع الثاني من السورة يرشد القرآن الى انحراف بعض الخلق عن النهج القويم وعن شكر المنعم الذي خلق وعلم، فلم يستفيدوا من العلم والمعرفة.

وفي المقطع الثالث: يمضي القرآن الكريم في بيان صورة من صورة الطغيان الذي يقف في وجه أهل الطاعة، موضحاً ما تؤول اليه عاقبة صاحب هذه الصورة.

وفي ضوء هذا المصير الرهيب تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع الى الإصرار والثبات على الإيمان والطاعة، في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [سورة العلق: ٦ -٧].

وهذه المقاطع الثلاثة جاءت جميعاً تدل على عظمة الصانع وتبين عدم

(٢٦) مجمع البيان، ج١، ص٨٥ و٣٩٨.
(٢٧) ينظر: التصوير القرآني في جزء عم، ج٢، ص٧٨٤ ومابعدها.

التفات بعض خلقه الى جلال وعظيم قدرته، وبذلك نرى أن مقاطعها الثلاث شديدة الصلة بعضها ببعض[٢٨].

فمقصودها: الأمر بعبادة من له الخلق والأمر، شكراً لإحسانه، واجتناباً لكفرانه، طمعاً في جنانه، وخوفاً من نيرانه، لما ثبت من أنه يدين العباد يوم المعاد[٢٩].

ثم جاء تذكير الإنسان الطاغي بمصيره؛ تنبيهاً وتهديداً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ على طريق الالتفات من أسلوب الغيبة الى الخطاب.

هكذا كانت السورة الأولى في القرآن الكريم.. ابتداء قوي منذ اللحظة الاولى لنزوله، وهذه الفواصل التي تبدو للنظرة الاولى متباعدة، هي من الداخل متناسقة، وهذا نسق من القرآن عجيب، آيات جمعت بين روعة الإبداع في نسقها الخارجي والداخلي على حد سواء، اذ جاءت الفاصلة القرآنية فيها متنوعة بتنوع الانفعالات الصادرة من لين مقاطعها أو شدّتها، مما أدى الى هذه اليقظة النفسية، والى هذه الإيحاءات التي أوحت بها الكلمات بل الحروف، وكانت الروعة كل الروعة في تتابع هذه الفواصل القرآنية، وهي تعبر بحسّها وجرسها وايقاعها، وتتوالى عباراتها بجزالتها وفخامتها وانتفاء كلماتها وحروفها، الأمر الذي أدّى الى هذه الموسيقى الداخلية التي تنبع من اختيار الكلمات، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات، ومن ثم كانت الصورة الرائعة التي صحبتها موسيقاها- من الداخل والخارج -فلم تلبث أن استجاب العقل والوجدان لداعيها، بعد أن صحبتها تلك المواقف النفسية المتأثرة بها[٣٠].

سورة القلم:

سورة القلم مكية، نزلت بعد سورة

(٢٨) ينظر: التفسير الموضوعي، ج٩، ص٢٥٠ و٢٥١.

(٢٩) مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور، ابراهيم بن عمر البقاعي، ج٣، ص١٢٣.

(٣٠) الصورة الادبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، ص٢٠٢ و٢٠٣.

العلق،[٣١] والمحور الأساس الذي تدور عليه السورة الكريمة هو إثبات نبوة محمدﷺ وتثبيت قلبه،[٣٢] وبعلاج تربوي للرسولﷺ بشأن التأثّرات التي تأثّرت بها نفسه من مواقف المكذبين برسالته إبّان نزول السورة، إذ اتّهمه بعض كبراء قومه وعُتَاتِهم بالجنون[٣٣]. وقد أقسم الله جلّ شأنه بالقلم لما فيه البيان على صدق نبيهﷺ وإثبات نبوته وبراءته من الجنون الذي افتراه عليه الجاحدون زوراً وبهتاناً. والمجنون يستحيل أن يكون نبيّاً، وصاحب الخلق العظيم يستحيل أن يكون كذاباً مدعياً[٣٤].

وهناك ارتباط واضح ومتين بين مضمون سورة (ن) والسورة التي قبلها (العلق). فابتدأ بسورة (ن) إذ أن الله أراد أن ينوه بالقلم في سورة العلق فالقلم المقسم به هو ما يكنى عنه بالقلم من تعلق علم الله بالموجودات الكائنة والتي ستكون[٣٥] وحيث أقسم في الثانية بـ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ لتدل على قوة عقل هذا الرسول الذي أنزل الله عليه هذا القرآن، ومنه يعمّ العلم والعرفان، وبه تتهذب النفوس، وترقى شؤوننا الاجتماعية والعمرانية لتكون تأكيداً لما احتوته هذه الآيات الخمس في صدر تلقين القرآن منذ بدء تنزيله بخطورة القراءة والكتابة والعلم والتعلم في حياة الإنسان وكرامته[٣٦].

و(ن) إما اسم للسورة، أو لغرض منه التحدي، مثل: ق و ص بأنْ يأتوا

(٣١) الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج١، ص٢٧؛ وقال الآلوسي في روح المعاني: هي من أوائل ما نزل من القرآن بمكة، فقد نزلت -على ما روي عن ابن عباس -﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ...﴾ ثم هذه، ثم المزمل، ثم المدثر.

(٣٢) ينظر: التفسير الموضوعي، ج٨، ص٢٩٠.

(٣٣) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبّر، عبد الرحمن حسن جبنّكة الميداني، المجلد الاول، ص١٩٩.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٢٩٦.

(٣٥) ينظر: التحرير والتنوير، ج٢٩، ص٥٦؛ وقال البيضاوي والسيد شبر في انوار التنزيل والجوهر الثمين «والقلم الذي كتب اللوح، أو الذي يكتب به لكثرة منافعه». انوار التنزيل، ج٥، ص٢٣٣؛ الجوهر الثمين، ج٦، ص٢٥٩.

(٣٦) ينظر: التفسير الجديد، ج١، ص٣٦٤.

بمثل القرآن أو بعضه، مادام مكوناً من حروف اللغة العربية التي بها ينطقون ويكتبون، وينظمون الشعر، ويدبّجون الخطب البليغة[٣٧].

ولما كان الحاصل بالقلم من بث الأخبار ونشر العلوم على تشعبها والأسرار ما يفوق الحصر، فصار كأنّه العالم المطيق واللسن المنطيق... ولما كان المخاطب بهذاﷺ قد عاشر المرسل إليهم دهراً طويلاً وزمناً مديداً أربعين سنة، وهو أعلاهم قدراً وأطهرهم خلائق، وأمتنهم عقلاً وأحكمهم رأياً وأرأفهم وأرفعهم عن شوائب الأدناس همة، وأزكاهم نفساً بحيث إنه لا يدعي بينهم إلاّ بالأمين، ولم يتجدد له شيء يستحق به أن يصفوه بسببه بالجنون، وهو سلوك المنحرفين الذين سيناهضون رسالة الاسلام، نفى سبحانه عنهﷺ ما قالوه، فثبت لهﷺ كمال العقل وسداد الرأي ورشاد الأمر، مقابل تهمة الجنون، وأضاف الى كمال العقل سمة هي من أرفع مستوياتها وهي: الخلق العالي الذي يعبّر عن التوافق الداخلي والخارجي للشخصية، فالشخصية السوية هي التي تتوازن داخلياً بحيث لا تحيا الإنشطار والتخرّق، وتتوازن خارجياً حينما تحق سمة (التكيف أو التوافق الاجتماعي) الذي يعني القابلية على أن تتعامل مع الآخرين، وليس أن تهرب منهم وتنسحب الى الداخل، وهذا هو قمة الخلق العظيم[٣٨].

ثم أردف الله تعالى بما يقوي قلبهﷺ ويدعوه الى التشدّد والإصرار مع قومه مع قلّة العدد، وكثرة الكفار، لأنهم لم تنفع فيهم الأخلاق ولا العلم، لأنهم انحرفوا عن شكر من خلق وعلّم، وطغوا وتجبّروا بدلاً من أن يشكروا المنعم على انعامه. فسورة (ن) يتحد موضوعها من أوله الى آخره في بيان عظمة الرسول -في كمال عقله وخلقه-

(٣٧) ينظر: مفاتيح الغيب، ج١، ص١٢٧؛ تفسير ابن كثير، ج١، ص٣٩؛ الكشاف، ج١، ص١٣؛ والتفسير المنير فى العقيدة والشريعة، وهبة الزحيلي، ج٢٩، ص٤٤؛ في ظلال القرآن، ج١، ص٣٨؛ تفسير المراغي، ج٢٩، ص٢٨.

(٣٨) ينظر: التفسير البنائي، ج٥، ص٧٩.

وماله عند ربه من تكريم وتبجيل وتعظيم. فاتبع الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ إعلاناً بأنهﷺ ممن ارتضاه من الرسل وخصه بخصائص وكفاه شر أعدائه[٣٩].

سورة المزمل: سميت به؛ لدلالته على عظم أمر الوحي، لأن أقوى الخلائق كان يرتعد عنده فيتزمل[٤٠].

السورة مكية من حقائق السور النازلة في أول البعثة[٤١].

يدور محور هذه السورة الكريمة حول شخصية الرسولﷺ، إشارة الى إحدى أحوال المصطفىﷺ فجاء خطاب الانبساط مع سيد المرسلين، والاشعار بملاطفة الله تعالى رسولهﷺ بندائه بوصفه بصفة تزمُّلِه، والأمر بقيام الليل، وبيان حجة التوحيد. والأمر بالصبر على جفاء الكفار، [٤٢] ولقد تكرر بدء مطالع السور بنداء النبيﷺ مما يصح أن يقال إنه أُسلوب من أساليب النظم القرآني في مطالع السور وشخصياتها[٤٣].

وهذا الاستهلال الفني للسورة: ينطوي على أهمية جماليه فائقة هي: العنصر الإيحائي لهذا الخطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾. فالمزمل-لغوياً -هو المتلفّف بثيابه، ولكن العبارة ذات ايحاءات متنوعة- وهذه هي سِمة الفن -حيث نجد أن النصوص التفسيرية تتفاوت في تحديد الدلالة المقصودة من العبارة المذكورة، فالبعض ذهب الى أن المقصود منها: المتزمل بعبادة النبوة،[٤٤] وهذا يعني أننا أمام (استعارة)،[٤٥] والبعض ذهب الى أن المقصود من ذلك هو: المتزَمّل بالنوم فتكون أمام (رمز)، والبعض ذهب الى الدلالة اللغوية فحسب[٤٦]... والأهم

(٣٩) البحر المحيط، ج١٠، ص٣١١.
(٤٠) تفسير المهائمي، ج٣، ص٤٦٧.
(٤١) تفسير الميزان، (الأعلمي)، ج٢٠، ص٦٦.
(٤٢) التفسير الموضوعي، ج٨، ص٤٢٥.
(٤٣) التفسير الحديث، ج١، ص٤٠٥.
(٤٤) ينظر: مجمع البيان، ج١٠، ص٥٦٨؛ فتح القدير، ج٥، ص٣٧٨؛ غريب القرآن، ابن قتيبة، ج١، ص٤٢١.
(٤٥) شبه إجراء التبليغ بتحمل الحمل الثقيل بجامع المشقة (محاسن التأويل، ج٩، ص٣٤٠).
(٤٦) أي خاطبه العلي بكسائه المشتمل به أي بالوصف الذي هو عليه ملاطفة له. (التفسير المبين، ج١، ص٧٧٣). وإيناساً لنفسه، وتحبباً إليه، حتى يزداد نشاطاً،

من ذلك أنّ كلاً من التفسير اللغوي والاستعاري والرمزي: يتجانس مع فكرة السورة التي تريد أن تتحدث عن قيام الليل، طبيعياً، إنَّ هذا الخطاب للنبيﷺ، (كما أنَّ له خصوصيات عبادية)... ولكن انسحاب ذلك على مطلق المؤمنين بحيث يفيدون منه: أمرٌ ينبغي ألاّ نتردّد فيه، فقيام الليل أمرٌ تؤكّده نصوص التشريع بنحو بالغ المدى، حتى أنّ النبيَّﷺ كان يقول بما معنا: أَنَّ جبريل كان يوصيه بقيام الليل، حتى ظنَّ أن المؤمنين ينبغي ألاّ يناموا في الليل... كما ربط النصّ القرآني بين قيام الليل وبين قراءة القرآن ترتيلا... (٤٧)

والكلام مؤكّد من عدّة وجوه: بالنون المؤكِّدة، وكلمة ناشئة مصدر جيء به للمبالغة، وكلمة الفصل -هي- وأفعل التفضيل في أشدّ وأقوم. وتمييز أشدّ وطناً، وأقوم قيلا، كل هذه الكلمات حوافز ودوافع للاهتمام بقيام الليل في أول البعثة استعداداً لتهيئة الجسم وحفز النفس للأمر المهم. ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلّف الله به رسوله ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة، وأمرتهﷺ بالصبر على أذى المشركين، وهجرهم هجراً طويلاً، فالله سبحانه كفيل بالانتقام منهم بإهلاكهم وإبادتهم.

ولقد أخذ القرآن يذكر سبب هذا الأمر فقال ما معناه: يا محمد انك تحمل أكبر رسالة، وتدعو الناس الى أضخم دعوى: دعوة الحق والحرية والكرامة، وسيكون لك أعداء، وسيكون لمن يدعو بدعوتك، لهذا أمرناك بإعداد نفسك وجسمك الى تحمل الرسالة.

فجاء التوجيه الى الصبر بعد التوجيه الى القيام والتبتل والذكر، فكلاهما شاق وعسير.

وهو يبلغ رسالة ربه (التفسير الوسيط، الطنطاوي، ج١٥، ص١٥٢).

(٤٧) التفسير البنائي، ج٥، ص١٥٨ ومابعدها. قال سبحانه: ﴿... وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي بينه تبييناً، وفصله تفصيلاً، بقراءته على ترسُّل وتؤدة، بِتبْيين الحروف وإشباع الحركات، فذلك أعون على تأمله، وأثبت لمعانيه في القلب. (ينظر: الكشاف، ج٣، ص٢٢٦).

وختمت السورة بتخفيف الله تعالى عن رسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض ضروراتهم المعيشية، فإنّ منهم المريض ومنهم المجاهد في سبيل الله، ومنهم الذين يضربون في الأرض طلباً للرزق والقوت، لهم ولذراريهم[٤٨].

لقد رسمت هذه السورة طريق السير الى الله، وبينت الطريق الى التقوى في حدِّه الأدنى وحدِّه الأعلى؛ فحدُّه الأدنى صلاة مفروضة، وزكاة، واستغفار، وقيام ما تيسر من الليل. وحدُّه الأعلى: صلاة، وإنفاق، واستغفار، وقيام من الليل، وترتيل قرآن، وذكر، وانقطاع الى الله عزّ وجلّ، وصبر على أقوال الكافرين، وهجرهم، وانتظار فعل الله فيهم إذا لم يكن جهاد مأموراً به، وصلة ذلك بقضية العبادة والتقوى التي هي محور السورة واضحة المعالم[٤٩].

(٤٨) ينظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ج٣، ص٤٦٣؛ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، ج٣، ص١٣١؛ التفسير الموضوعي، ج٨، ص٤٢٦.

(٤٩) التفسير الموضوعي، ج٨، ص٤٢٨؛ الأساس في التفسير، سعيد حوى، ج١١، ص٦٢٠٠ و٦٢١١.

أهم المصادر والمراجع:

- الأساس في التفسير، سعيد حوي، (القاهرة: ٢٠٠٩).
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، دار الفكر، (بيروت: ٢٠٠١م).
- البلاغة القيمة، د. عبد القادر حسين، (القاهرة: ١٩٩٩).
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، (تونس: د. ت).
- التصوير القرآني في جزء عمّ، دراسة أدبية تحليلية، (جدة: ٢٠٠٦م)، أ. أناهيد عبد الحميد جمال حريري.
- التفسير البناني، د. محمود البستاني، (مشهد: د. ت).
- تفسير الوسيط، الزحيلي، وهبة بن مصطفى، (بيروت: ١٤٢٢هـ).
- تفسير روح البيان، حقي البروسوي، اسماعيل، (دار الفكر: د. ت).

- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيشابوري، نظام الدين الحسن بن محمد، (بيروت: ١٤١٦هـ).
- التناسب القرآني، أمير طلال النعيمي، (مجلة البحوث والدراسات الاسلامية، عدد ٣٢، عام: ٢٠١٣).
- التناسب القرآني عند الإمام البقاعي، مشهور موسى مشهور مشاهرة، (الأردن: ٢٠٠١م).
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد، (طهران: ١٤٠٦هـ).
- الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، السيد عبد الله شبر، مكتبة الألفين، (الكويت: ١٤٠٧هـ).
- دلائل النظام، الفراهي، عبد الحميد، (الهند: ١٣٨٨هـ).
- دلالات الترتيب والتركيب في سورة البقرة، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة، زهراء خالد سعد الله العبيدي، (الموصل: ٢٠٠٧م).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسي، السيد محمود، (بيروت: ١٤١٥هـ).
- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (بيروت: ١٤٢٢هـ).
- زبدة التفاسير، الكاشاني، المولى فتح الله، (مؤسسة المعارف الاسلامية: ١٤٢٣هـ).
- صفوة التفاسير، الصابوني، محمد علي، (القاهرة: ١٩٩٧م).
- غريب القرآن، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تحقيق: أحمد ضفر، (بيروت: ٢٠٠٧م).
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (بيروت: ١٤١٤هـ).
- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الغرناطي، محمد بن أحمد، (دار الأرقم: ١٤١٦هـ).
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، (بيروت: ١٩٨٧م).

connotative meanings are revealed after verification and concentration. This rule concerns the human texts، so we can imagine how the Quranic text is.

In the Quranic text، the occasion is related through a general or particular meaning related to them، and it could also mean a sensational or imaginative relation or mental collocation like the cause and effect or the reason and result. The variation of the subject matters and the difference in the occasions of the Quran does not affect the internal structure as long as the various occasions removes the flaws and reserves the cohesiveness of the text by several ties. This is what the researchers such as J. Brown and J. Paul has reached when they said that the coherence of the text should be searched for by the reader through investigating the cohesive ties found in the text among the parts of speech.

Theodor Noldeke has referred to the point that Quran is a cohesive unit referring to the knowledge of monotheism and applied this principle on a Quranic text.

Some of the researchers regarded this science as one of the interesting subjects related to the book of Allah and they indicated that ti is an image of the rhetoric and stylistic taste of the Quran.

:Abstract

This science is regarded as one of the stylistic methods that reveals the linguistic، tylistic and mental relations within the text. Also، it sheds the light towards the coherence of its units and the cohesive ties used. The coherent and cohesive ties of a text are not a matter that could be improvised، rather it is a whole coherent unit which interprets itself as its parts are related to each other. Many factors are involved، such as the growth of the text from the general to the particular، the intended meaning and the complementation of the contexts; the context of Verses and of the Suras in the Quran. All of that is taken into consideration in comprehension and interpretation in order not to lose the meaning of the text or to lead to an impossible indication. The scholars has varied in realizing the reasons for being different in their ability to comprehend the secrets of rhetoric in the Quran and to concentrate deeply in realizing the objective، formal and mental connections between the texts which superficially seem different or opposite، but in fact they have a cohesive structure and carries the indications of the Quran and its intended meanings. The